الفصل الرابع

ضبط الكتابة العربية وتقييدها
بالنقط والشكل

يصح لنا أن نعتبر النقط والشكل فى الكتابة العربية أثراً من آثار الإسلام فيها — ذلك لأن الكتابة العربية لم تكن فى الجاهلية منقوطة ولا مشكولة لعدم حاجة العرب فى الجاهلية وفى الصدر الأول من الإسلام إلى هذه الضوابط لمكانهم من العربية ، ولا غرو فالعربية لغتهم وهم سادتها المالكون لزمامها يتكلمونها ويقرأونها صحيحة بالسليقة والطبع .

غير أنه لما اختلط العرب بالأعاجم وتناسلوا معهم ، ظهر جيل جديد فشا اللحن فى كلامه ، وعندئذ أخذ الفساد يتطرق إلى العربية ومن ثم إلى القرآن . ولم يكن بد حينذاك من وضع النحو ، وضعه أبو الأسود الدؤلى بتكليف من زياد أمير العراق حوالى عام ٦٧ هـ — ٦٨٦ م. واستعان الدؤلى فى ذلك بعلامات كانت

عند السريان يدلون بها على الرفع والنصب والجر، ويميزون بها بين الاسم والفعل والحرف .

وإذا كان من المقطوع به أن الشكل أو « العلامات الأعرابية » أمر حادث على الكتابة العربية فى الإسلام ، فان النقط بمعنى إضافة النقط إلى الحروف المتشابهة فى الرسم (كالباء والتاء والثاء والياء) قد يكون أقدم عهداً ، إذ يبعد أن تكون الحروف التى من هذا القبيل قد وضعت أول أمرها على هذا اللبس ، وتدل بعض الكتابات العربية التى تنتسب إلى أوائل العقد الثالث الهجرى (٢٢ هـ) على أن العرب كانوا يستعملون النقط قبل إنشاء الكوفة واستقرارهم فى العراق — أى قبل زياد وأبى الأسود بزمن . والمتصفح لمجموعة الأرشيدوق رينر البردية المحفوظة بالمكتبة الأهلية بفينا يجد بعض هذه الحروف المتشابهة قد نقط وبعضها قد أغفل .

كان العرب الخلص يعتبرون نقط الكتاب أو شكله سوء ظن بالمكتوب إليه . وكان عرب الصدر الأول من الإسلام يكرهون إضافة شىء على المصحف الإمام (مصحف عثمان) ولو بقصد الإصلاح .

ولكن ضرورة المحافظة على القرآن أجازت وقوع الأمر المكروه، وأخذ المتحمسون لوقاية كتاب الله من شبه التحريف واللحن يفكرون فى الوسيلة إلى هذه الوقاية فاخترعوا الشكل وعمموا النقط بحيث غدت الحروف المتشابهة رسماً، كالدال والذال، غير قابلة للالتباس ، ولتمييزهما أهملت الأولى (لم تنقط)، وعجمت الثانية (أى نقطت) ، فالعجم أو الإعجام هو نقط الحروف التى حقها أن تنقط ، وقد يتسع معنى الإعجام أو العجم حتى يعنى نقط الحروف وشكلها فى آن واحد ، وعلى ذلك يكون عجم الحروف (أى نقطها وشكلها) هو الطريقة المثلى لتحاشى التصحيف أو القراءة غير الصحيحة .

وكانت طريقة الدولى فى شكل أواخر الكلمات أن استحضر كاتباً وأمره أن يتناول المصحف ، وأن يأخذ صبغاً يخالف لون المداد — فإذا رأى الكاتب أبا الأسود قد فتح شفتيه على أخر حرف ، نقط نقطة واحدة بالصبغ المختلف فوق الحرف فيكون هذا هو الفتح . وإذا رأى أبا الأسود قد خفض شفتيه عند آخر حرف، نقط نقطة واحدة تحت الحرف بالصبغ المخالف فيكون هذا هو الكسر، فإذا ضم شفتيه جعل الكاتب النقطة بين

يدى الحرف (أمامه)فيكون هذا هو الضم ــ فإن تبع الحرف الأخير غنة، نقط الكاتب نقطتين أحداهما فوق الأخرى وهذا هو التنوين . وأخذ أبو الأسود يقرأ المصحف بالتأنى ، والكاتب يضع النقط التى هى بمثابة الحركات ، وكان الكاتب كلما أتم صفحة راجعها أبو الأسود حتى (شكل) المصحف كله .

وكان هذا أول إصلاح أجرى فى الكتابة العربية بقصد ضبطها، أما الإصلاح الثانى فالمتداول أنه تم فى خلافة عبد الملك بن مروان فى الحلقات الأخيرة من القرن الأول الهجرى حين قام يحيي بن يعمر ونصر بن عاصم بوضع « الإعجام » بمعنى النقط عند ما كثر التصحيف (القراءة المخطئة) فى العراق ، عند ذلك فزع الحجاج بن يوسف الثقفى إلى كتابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المتشابهة فى الرسم علامات تميز بعضها عن بعض . فوضع نصر ويحيي الأعجام بمعنى (النقط) ونقطت الحروف بنفس مداد الكتابة ، لأن نقط الحرف جزء منه .

ثم جاءت مرحلة ثالثة من مراحل ضبط الكتابة العربية عند ما وجدت الحاجة ماسة إلى المخالفة بين « الشكل » الذى وضعه

أبو الأسود الدؤلى بمداد مخالف لمداد الكتابة ، وبين الإعجام (النقط) الذى وضعه نصر ويحيى أفراداً وأزواجاً على بعض الحروف أو تحتها بنفس مداد الكتابة — عندئذ وجدوا أن الأمر سيختلط على القارئ .

وكان هذا الاصلاح الثالث والأخير فى العصر العباسى الأول حين اضطلع الخليل بن احمد الفراهيدى بمهمة إبدال النقط التى وضعها أبو الأسود للدلالة على الحركات الإعرابية بجرات علوية وسفلية للدلالة على الفتح والكسر ، وبرأس واو للدلالة على الضم ، فاذا كان الحرف المحرك منوناً كررت العلامة فكتبت مرتين فوق الحرف أو تحته أو أمامه (بين يديه كما يقولون) ، واصطلح على أن يكون السكون الخفيف (الذى لا إدغام فيه) رأس خاء بلا نقط (حـ) أو دائرة (ه) وأن يكون السكون الشديد (وهو السكون الذى يصاحبه الإدغام) على هيئة رأس شين بغير نقط (سـ) ، وللهمزة رأس عين (عـ) لقرب ما بين الهمزة والعين فى المخرج ، ولألف الوصل رأس صاد (صـ) ، وللمد الواجب ميما صغيرة مع جزء من الدال ، وهكذا وضع الخليل

علامات ثمان : الفتحة والكسرة والضمة والسكون والشدة والمدة وعلامة الصلة والهمزة .

وغدا ممكناً بعد هذا الإصلاح أن يجمع الكاتب بين شكل الكتاب ونقطه بلون واحد دون لبس بينهما .

° ° °

وللعرب آراء متعارضة فى الأعجام، فالبعض يؤيده والبعض يعارضه، والذين يذمونه يرون فى نقط الحروف وشكلها سوء ظن بالمكتوب إليه . ومن طريف قول أبى نواس فى كاتب نقط كتاباً أرسله إليه وشكله :

يا كاتبا كتب الغداة يسبنى … من ذا يطيق براعة الكتاب
لم ترض بالإعجام حين كتبته … حتى شكلت عليه بالأعراب
أحسست سوءالفهم حين فعلته … أم لم تثق بى فى قراة كتاب
لو كنت قطعت الحروف فهمتها … من غير وصلكهن بالأنساب

وقد قيل فى لزوم نقط الكتابة : ينبغى للكاتب أن يعجم كتابه ، ويبين إعرابه ، فانه متى أعراه عن الضبط ، وأخلاه من الشكل والنقط ،كثر فيه التصحيف، وغلب عليه التحريف .

وقيل أيضاً لكل شيء نور، ونور الكتاب العجم، كما قيل أى

كتاب لم تعجم فصوله ، استعجم محصوله .

وقد حكى أن جعفراً المتوكل العباسى كتب إلى بعض عماله «أن احص من قبلك من المدنيين وعرفنا بمبلغ عددهم» ، فوقع على الحاء نقطة ، فجمع العامل من كان فى عمله منهم وخصاهم ، فماتوا غير رجلين أو واحد .

وقد رغبوا فى الشكل بكلام نسبوه إلى قائليه ، فمن ذلك قولهم : اشكلوا قرائن الآداب ، لئلا تند عن الصواب ، ومنه قولهم كذلك : إعجام الكتب يمنع من استعجامها ، وشكلها يصون عن إشكالها .

وقول الشاعر :

وكأن أحرف خطه شجر والشكل فى أغصانه ثمر

كما رهبوا عنه بأمثال قولهم : «لأن يشكل الحرف على القارئ أحب من أن يعاب الكاتب بالشكل» .